

حول ظاهرة العزوف عن القراءة وتعذر حصول ملكة العربية واستعصاء
التبليغ
حالة طلبة قسم الترجمة جامعة الجزائر

د.عمار بوساحة
أستاذ محاضراً كلية الآداب و اللغات
جامعة البليدة 2

تاريخ 2018/12/18

تاريخ القبول: 2019/02/14

الملخص:

يطمح هذا المقال الى الوقوف على وضعية اللغة العربية لدى طلبة قسم الترجمة جامعة الجزائر ، من خلال مقياس تقنيات التعبير الكتابي العربي . صورة هذه الوضعية تشكلت مادتها عبر التجربة الميدانية، مرتسمة بظلالها وألوانها في ثنايا ضحالة الذخيرة اللغوية العربية تحديدا لدى الأغلبية الساحقة من طلبة هذا القسم ، الأمر الذي يقتضي الوعي بخطورة انعكاساتها و بلاغة دلالاتها بوصفها تحصيل حاصل لآفة العزوف عن القراءة كعملية تواصلية تفاعلية ، في تعاطي الأشكال اللغوية بمضامينها المعرفية و الفكرية الانسانية ، خاصة اذا كانت أدواتها هنا هي العربية تعيش غربة ، مصدرها الجهل بعبقريتها من قبل أجداع النخل الخاوية التي لم تتورع من نسج معها علاقة عدائية

متعدية الى مدرسيها ،فاقتضت الضرورة ملامسة هذه الآفة و تشخيصها و التحسيس بخطورتها قصد علاجها و استئصالها ، علما أن العربية في الجزائر لغة السيادة، و في قسم الترجمة اللغة القاعدية التي منها نترجم و اليها نترجم.

Abstract:

This article focuses on arabic as a language of teaching in translation department of algiers university through the module of Arabic writing techniques.

This situation spring from experimental method witch point out a poor lexical back ground regarding that student do not read a lot leading to non-effective communication.

Arabic Witnesses a strange situation, because the fact that they ignore its genius aspect.

It makes us spare no effort in order to determine its problems, and trying to solve.

من نقطة قوته التنويرية وصولا إلى نقطة طاقته التحريرية التغييرية، يضبط فعل القراءة مسافته. شاحنا فعاليته بحركة دلالاته البليغة التي لا يمكن تعاطيها إلا من حيث كونه خلاص نهائي من أصفاد الجهل وبرائن

الجاهلية، وارتداد للآفاق القصية التي حلمنا بها والتي لم نكن نحلم بها، إنه صلاة في محراب الدنيا، اختراق للمغمور والمكنون واكتشاف لعظمة الكون وأسراره، حوار الحاضر للغائب واستنطاقه، وحضور مضطرب في الغياب والتواصل معه.

هاهنا تتراءى عملية القراءة في طبيعتها، مرادفا للعمل الثوري العاصف، والفعل التمردى الكاسح، هي كوة على عالم الأسرار ومفتاح أسرار العالم، متعة لمن أرادها وسفر شاق ممتع لمن امتطى صهوتها، هي شهوة النفوذ إلى أعماق المحظورات واللذة الوحيدة التي لا يعقبها ألم ولا ندم.

منذ بدء التكوين كانت الكلمة هي البدء، ومنذ أن صُنِعَ الحرف وُحُطَّ سفر التكوين كانت الكلمة أيضا هي البدء، ولا غرابة أن يلزم الأمر بالقراءة بداية نزول الوحي، ولا غرابة أن يستجيب لأمر القراءة ذلك المخلوق الأمي، فيعلمه خالقه ما لم يعلم، مكلفا حينها إياه بتبليغ رسالته، فكان نعم المبلغ، ونعم المعلم، ونعم الرجل، الذي حمل مصباح الدعوة تحت أشعة القراءة بلسان عربي مبين فاستضاء وأضاء، محررا الإنسانية قاطبة من أغلال جهلها وظلالها. تلك هي وظيفة القراءة كفعل مغير وكُنه لا يتغير عبر الزمان والمكان والإنسان، كفعل ابستمولوجي، كرسالة وككيان، كعامل جوهرى في نظرية الاتصال بين بني الإنسان، هذه الأخيرة التي يتشكل بلوغ خطابها ويتولد في رحم القراءة، إنها تنبثق في اللحظة التي تنتج فيها القراءة مهارتها ببلاغة تعبيرها فن التبليغ أي عندما يتحول الكلام إلى فعل تأثير، وهي اللحظة التي تكون فيها القراءة قادرة على تجشم وظيفتها في مواجهة الانسداد والأزمة الحاصلة على مستوى الحالات البسيكوسوسيولوجية للأفراد والجماعات، وحينما تستثمر فعاليتها في الكيان الجمعي والفردي من خلال احتكاك هذا الفرد بالعالم

الخارجي والتواصل مع حقل المعرفة الإنسانية بقنواتها المختلفة، كي يتمكن من أن يعي العالم ويستكنه أسراره "فمعرفة الشيء امتلاك له وقدرة على التصرف فيه، وكلما ازداد الإنسان علما بالأشياء ازداد وعيا بالواقع، وكلما تعمق وعي الإنسان، ازداد تحررا"⁽¹⁾.

ويتوقف هذا الأمر على مقدار استعداده الفطري من جهة، وفي مدى تفاعله مع محيطه من جهة أخرى، وبين هذا الاستعداد وذاك التفاعل يمر القارئ بموقف شاق لا يعلم المرء عمّ سيتمخّض؟ ولنتجاوز ذلك إلى القصد فنقول أنه عندما تحصل هذه الفتنة التي نسميها قراءة، وفي كل مرة يعيش القارئ نشوة القراءة تحدث حالة المخاض ويصل إلى حالة نسميها ولادة الملكة اللغوية، بوصفها ليست وحيا يساقط من فعل، وإنما عمل دؤوب تغذيه روافد خارجية وتنجبه عوامل ومعطيات داخلية بفضل عملية القراءة نفسها التي تستدعي حضور ضربتها الكتابة درءا لها من مأل الشحوب والأفوال.

واللغة العربية بوصفها فاتنة فيحاء، سامقة حسناء، جبلت من معدن الشموخ والكبرياء، من البديهي ألا تنحني ملكتها فقط للكسالى ومعاقري الكسل الذهني، والمدمنين على الاسترخاء العقلي، والمسكونين بمركب النقص، والمصابين بعاهة الدونية الدنيئة سيان. ومن موقع العارف بطبعها وطبيعتها، فهي لا تستجيب إلا لنداء المتيممين بجمالها وصرخات المولعين بفتنتها، والمسكونين برغبة جامحة في امتلاك ناصيتها، الذين يختلط بياض نهارهم بسواد ليلهم في مغاللتها، واللهث وراءها، ومطاردتها في جغرافيا الحل والترحال. هؤلاء جميعا هم الذين تصغي إليهم، ولكن باحتراس وتحفظ إلى أن يسري في ثناياها نورُ اليقين من إخلاصهم وحسن نيتهم وصدقهم حينها تدفعن لهم العنان وتحصل في الذاكرة والذهن والوجدان، محتفظة بكبريائها وشموخها

على الدوام. لذا يصبح التوحد بها والإخلاص لها، وعناقها عناقا أبديا قراءة وسمعا وكتابة من المسلمات التي لا تحتاج إلى دليل وبرهان.

وفي المقابل فإن العزوف عن القراءة بأي لغة كانت، وبهذه الفاتنة التي اسمها العربية تحديدا، هو أشبه ما يكون بالحالة المرضية الخطيرة، تصيب صاحبها إراديا لا قسريا، فتقربه من جهل الجاهلين بجهلهم، المرزوين في عقولهم، المعتدّين بعزة إثمهم، مع فارق الشهادة الزائفة التي يحملها هو، ممهورة بختم مؤسسة رسمية، وبين شهادتهم هم، التي استصدروها من مؤسسة جهالتهم الفكرية المتأصلة وأميّتهم العلمية والمعرية الموروثة، والتي لا يستنكفون من تبريرها بالمغالطة "الجرذانية" التي مفادها "أعطيهمولي فاهم والله لا قرا".

ولعمري متى حدث أن تمت "الفهامة" بدون قراءة أو تعلم، اللهم إلا في بلاد "الوقواق" والنفاق ومشیخة الإفك والبهتان، ولا أدل على ذلك من أن البحوث العلمية والكشوفات المخبرية والتجارب الميدانية التي أجريت على سلالة الفئران أكدت على استحالة دخول لها ذرة من "الفهامة" حتى ولو قرأت صحائف الدنيا كلّها، لأنها لو كانت تقرأ لما دأبت على فسادها وخرابها، ولأن من شيمتها التخريب والتصحير، فلماذا تقرأ؟.. ولكن ليتمها تفهم بأن الفهم مشروط بفعل القراءة.

هذه المحطة تستوقفنا، لنحث خطانا إلى رحاب جامعاتنا بمدرجاتها وقاعات تدريسها وهياكلها العلمية والإدارية والبيداغوجية ومواقع صناعة القرار بها للتأمل فيها بصدق ولنتفحص بتؤدة وترؤ باطنها، فياخذنا الهلع من جراء الحالة البائسة التي آلت إليها، وكل ما فيها بريق خُلب يحسبه الضمآن ماء،

حتى إذا ورده أدرك فجيعه الصحراء التي وقع في قحطها وجديها. ولا غرابة في ذلك فجامعاتنا اليوم كل ما فيها شكلي وصورى، وقد تحولت إلى مجرد هياكل خاوية تنتج الخواء وتصنع بين جدرانها شهادات البطالة وحشودا من البطالين، بعد أن كَفَّت منذ زمن عن الاضطلاع بدورها الريادي الإشعاعي وآداء رسالتها في صناعة الأدمغة وإنتاج المعرفة والفكر والحضارة والإنسان المؤهل لقيادة الأمة نحو نمائها وخصيها وعطائها ورفاهيتها وتألّفها بين الأمم.

كيف لا يحدث هذا السقوط الحر؟ وقد تضافرت فيه جملة من العوامل والأسباب والمسببات، يأتي من بينها غياب اللغة كأداة للفهم والإفهام والإيصال والبحث والكشف، ووعاء للفكر ووسيلة لإثراء الخيال وإخصاب القريحة الناجمة بدورها عن غياب القراءة التي جعلت من الإنسان مخلوقا فريدا بقدراته الذهنية وسيدا لكل المخلوقات.

وإذا كان ما يقوم به القارئ من قراءة يدخل في الدينامية الثقافية التي تسعى إلى هيكلة النسق المعرفي للفرد وتفتح له آفاقا على المعرفة الكلية للإنسانية للتواصل معها أخذًا وعطاء⁽²⁾. حق لنا أن نتساءل عن طبيعة العلاقة القائمة اليوم بين طالب الترجمة ولغة أجداده التي منها يترجم وإليها يترجم.

إن العلاقة الانفصالية القائمة راهنا بين هذا الطالب وتراثه، بين الأجداد والأجداد، ليست علاقة افتراضية أو وهمية، ما دام أن شروخ الانفصال الحاصل بتصدّعاته الكبرى، قائم على مستوى جهل لغة التراث كأداة لاستبطان آثار الأجداد وعدم التحكم في العربية ككل لاستجلاء كنوز العطاء الفكري والحضاري والمعرفي المكتوب بها، وهو أمر أفضى إلى كارثة انقطاع الموروث الثقافي والنتاج المعرفي بحبل تواصله الجيلي، وارتسمت في ظله المسافة

السحيقة الفاصلة بين نقطتي الانتماء كهوية لغوية حضارية ونقطة الاغتراب بعدها الانسلاخي التنكري جلد ولسانا، وبين هذه المسافة تتجسد جغرافيا البؤس بصحراء لغتها وفقر شبكة تواصلها وعطب قنواتها إلى حد الانسداد.

وإذا كانت غاية الأداء اللغوي هي الإيصال والإفصاح وأن اللغة تتحدد وظيفيا بالمقام الذي تقال فيه، فإن طالب الترجمة المدروس هنا كحالة عامة لا يمتلك ناصية اللغة مما يجعله مجرد ببغاء يستحضر المعلومة كما قدمت له في سياقاتها وصياغاتها اللغوية، ويعيد المادة في صورتها مع بعض الأخطاء التي يرتكبها أثناء الكتابة بسبب سوء السمع الناجم عن الشوشرة أحيانا أو حصول عطب في جهاز الاستقبال لديه مما يتعذر معه حدوث التوصيل والإيصال في مختلف الحالات والأحوال، وليكن شاهدنا الأول هاهنا إجاباته أثناء الامتحان والتي لا تعدو مجرد بضاعة ردت إلينا والتي يعوزها الرجوع إلى قراءة المصادر والمراجع لبناء خلفية علمية له وإثراء ذخيرته اللغوية والمعرفية بالبحث والاطلاع والاستقصاء وإضافتها كمادة خام لجملة الدروس التي قدمت له كمادة مشتقة حتى يكوّن شخصيته ويصقل ذهنه.

إن حب القراءة واتخاذ من المطالعة هواية ينبغي أن يكونا صادرين عن النفس وليس مروضين من الخارج وذلك في السنوات الأولى من تشكل شخصية الطفل وتفتحها على العالم الخارجي عموما وعلى عالم الحرف خصوصا، وإذا حدث أن تجيها كعامل خارجي أخذ طابعه الاضطراري لا ينبغي أن يبدأ في المراحل الدراسية المتقدمة⁽³⁾. ذلك أن عملية القراءة تبقى ميلا ذاتيا ورغبة نفسية خالصة تستدعي التبصير بآلياتها وتوجيه الميول إليها عبر تعدد مستوياتها، واختلاف أنواعها وبيئاتها الاجتماعية، وهو الأمر الذي يفسره الاختلاف الحاصل في مقدار المحصول اللغوي والثقافي والمعرفي للفرد في

انطوائه على مبدأ الضروري الممتع، واقتضائه الرغبة والقابلية والتركيز وإعمال الذهن والاعتكاف والإخلاص، وهي في مجملها بحاجة لمثيرات تعمل على ترسيخ تراكم المفردة في ذهن الطالب مدعمة بتعزيزات مباشرة تتمثل في الممارسة التعبيرية كتابة ومشاهدة.

وهذا ما حاول أن يضطلع به مقياس التعبير الكتابي العربي، الذي أسند إلينا تدريسه في منتصف التسعينيات بقسم الترجمة كمقرر يتوخى من ورائه تدريب الطالب بهذا القسم على مهارة التعبير الكتابي العربي وإكسابه تقنيات التحرير باللغة العربية.

في مقدمة ما يستوقفك هنا، أن اللغة العربية غريبة في دارها وتعاني من حصار لساني مفروض عليها، أوجده الجهل بعبقريتها ناهيك عن العلاقة العدائية التي أحكمت معها، كعلاقة متعدية لمدرسها، تقتضي منه أن يتحول إلى شبه نبي مكلف بتبليغ الرسالة إلى القلوب قبل الألسنة، وبالتالي كان عليه أن يستنفر كل قواه ويدجج نفسه بالسلاح الفعال الكفيل بتحقيق هذا المبتغى وأول ذلك أن يتمتع بكفاءة لسانية تؤهله للتحكم في العملية البيداغوجية وامتلاك مرجعيتها النظرية وإجراءاتها التطبيقية انطلاقاً من رؤيته الخاصة السابرة لأغوار مقياس ينصبُّ أساساً على تعليم فنيات التعبير الكتابي العربي وتحقيق الغاية المرجوة منه بربطه بمختلف آلياته، حتى لا يبقى يرابط في دائرة العقم والرؤية القاصرة التي صيرت منه مجرد تحرير موضوع إنشائي ينجز كيفما اتق وينتهي أمره عند لحظة تسليمه للأستاذ وتسلمه منه مؤشراً بعلامة لا تتضمن أية مصداقية. ولأن الطريق الواجب سلكه باتت معالمه واضحة هنا، ونهايته لا تخرج بأي شكل من الأشكال عن تربية الحس الجمالي والفني في نفس المتلقي (طلبة الترجمة) وتهذيب ذوقه وترقية إحساسه بمفاتيح اللسان العربي

وتنمية رصيده اللغوي فيه بشحد ذاكرته وقريحته، كان ينبغي تجنب التواطؤ والممالة والمواربة والتضليل والمراوغة والمغالطة، وتوخي أسلوب العمل على المكشوف بالاستنجد بطرائق العرض والترغيب والتحضيض والإقناع والتشويق ارتكازا على ثلاثة أسس هي:

1- أساس اختيار النصوص.

2- أساس تحرير المقال.

3- أساس إنجاز بطاقة القراءة.

1- أساس اختيار النصوص:

ويتمثل في ضرورة الاعتماد على العامل الانتقائي وذلك بمرجة مرة في الأسبوع نصوص أدبية إبداعية بالدرجة الأولى مفعمة بلغة الومض والتنبض والصفاء والإشراق والمثل النبيلة والقيم الإنسانية والأخلاقية الرفيعة لتلمها نصوص متنوعة تستوفي الشروط اللغوية والفنية فيتم قراءتها قراءة صامتة لتلمها قراءة جهرية من قبل عدد معين من الطلبة وفق ورود أسمائهم في القائمة درءا للعزوف عن القراءة ولو في إطارها التوجيهي من قبل الكثير من الطلبة الذين يتباهون في الكثير من الأحيان أنهم لم يقرؤوا طيلة مسارهم الدراسي ولو مرة واحدة قراءة جهرية داخل القاعة الدراسية متبعين في ذلك سياسة النعامة التي تعني هنا الامتناع عن رفع الأصابع إلى غاية زوال المرحلة، ليشرع عقب ذلك في معالجة النص معالجة استثمارية منصبة على جانبه اللغوي لا الأدبي بالوقوف على مفرداته وتراكيبه اللغوية بالشرح والتوضيح والتفسير عبر الطريقة الحوارية لا التلقينية كسعي دؤوب لتغذية الذخيرة اللغوية لديه، بتعلم مفردات وتراكيب لغوية جديدة وترسيخها في الذهن وتخزينها في الذاكرة

عبر الاستعمال والتكرار بإدخالها في جمل من إنشاء الطالب ثم التركيز على عبارة أو أكثر شدد انتباهه فيؤمر بحفظها كحقيقة تُجسد اكتسابه تعابير لغوية ومعاني جديدة ومحاولة جادة لتكسير جدار اللغة الذي يبقى حائلا دون تحقيق التبليغ أثناء عملية الترجمة في أبسط صورها ومعاييرها لبعض النصوص التي كنا نحضرها في أصلها الفرنسي ونقوم بترجمتها إلى العربية لصهر ما هو نظري بما هو عملي والتي يبدو فيها الطالب المدروس كحالة هنا وليس الطالب الشاذ الخارج على القياس، غير قادر على التحكم في اللغة، حيث تسيطر على فكره وقاموسه القوالب والأساليب الجاهزة والتراكيب المهلهلة جارة إياه إلى اللفظية والصياغة المعتوهة في هاوية الغرابة والتنافر ومجانبة المعنى المقصود الذي يبقى محل بحث بإعادة تركيب العبارة وتشذيبها وإحلال محل ألفاظها ألفاظا أخرى حتى يستقيم المعنى ويتحقق البيان والفهم والإفهام ألم يقل الجاحظ: "وكلما كانت الدلالة أوضح وأفصح كانت الإشارة أبين وأنور كان أنفع وأنجع والدلالة الظاهرة على المعنى الخفي هو البيان"⁽⁴⁾.

ثم ألم يقل: "أحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره ومعناه في ظاهر لفظه"⁽⁵⁾.

وأما بعض القضايا الواردة في النص المدروس التي كنا قد ناقشناها والفكرة المحورية التي كنا قد استنبطناها فهي التي ستكون موضوعا للتحليل من قبل مجموعة من الطلبة يتم تعيينهم وفق ورود أسمائهم بالقائمة.

2- أساس تحرير المقال:

بناءً على الفكرة المحورية التي تم الإجماع حولها يُكلف كل واحد من هذه المجموعة بتحرير مقال مكثف بمنأى عن الطول الممل والقصر المخل ويراعي

فيه النسج على منوال النص السابق بتوظيف العبارة المشرقة والصياغة السليمة المحكمة القادرة على تقريب المعنى وإيصال الفكرة وتفجير الدلالة دون الوقوع في تراكم المفردة كخلل لغوي وفي مصدره التكلّف والتعمّل وعاقبته الحشو والغرابة والإقحام والتنافر وقصور الدلالة أو غيابها بسبب الاختلال الحاصل من عدم ائتلاف اللفظ للمعنى والعكس صحيح، وهي المعايير التي كنا نهتدي على ضوءها بشكل عام في تقويم مواضيع الطلبة وتقييمها في بحر الحصة التي تقدم فيها مقروءة كسعي ذؤوب لخلق في نفوسهم عوامل التنافس والتحفيز والإثارة من خلال القضايا المطروحة وتعويدهم على استقراء النتائج وتوليد التراكيب والأساليب وتدريبهم على كيفية صياغتها وإطلاعهم على طرق اختبارها وتقييمها وعدم الاكتفاء بالاستعمال النظري المجرد للعبارة والألفاظ دون ربط مدلولاتها بسياقات لغوية أو تحديد مدلولاتها بدقة حتى لا تظل المفاهيم والمدلولات في أذهان الطلبة مهتزة مشوشة، وذلك بفتح المجال للطلاب بأن يتعرف بنفسه على العناصر المتشابهة والمختلفة في سياق المفردة والتمييز بين هذا اللفظ وذاك داخل الحقل الدلالي الواحد بالاستعانة بالقاموس أو في إطار مناقشة عملية ميدانية يختبر فيها الطلبة قدرتهم على توظيف التعابير بدقة والتفريق بينها في إطار تحدده طبيعة معرفتهم بالموضوع المتناول والتي بدونها يستعصي التبليغ ويكبر جدار اللغة ويقيم الخطاب متاريسه بين المرسل والمتلقّي وتتعمّق الفجوة، وتبقى حركة المدلولات أسيرة الافتراضات ولا تتحقق لحظة الفهم إلا داخل تراكم التخمينات والتأويلات والتخريجات وتسقط اللغة في برودة إشارات لا تنتهي إلا داخل حركة عناصر الكيمياء الصماء البكماء، وتصبح لحظة الإيصال والتواصل المشرب إلها مجرد تداعيات واقعية لصور الإشكال والإغراب والإيهام، وحينها يمكن أن

نتحدث على أن ما حدث هو تحويلنا للغة العربية بمثابة عاهة ثابتة فينا تعوقنا عن التفكير والتواصل مع الآخر وتقف أمامنا عقبة كؤودا تحُول بيننا وبين الهواء الذي ندعي أننا نريد تنفسه بنكهته العربية النقية، ولكن لم نجهد أنفسنا في تنقيته تمهيدا لاستنشاق عرووبته، وفي خضم ذلك تواجهنا الصيغة الجاهزة بعناصرها المائلة في تعذر حصول العربية واستعصاء التبليغ كعاقبة مباشرة للعزوف عن قراءة كنوز العربية نفسها والامتناع عن سماع أوتارها وأنغامها وكتابة بريشة ألوانها ظلال الكون وتفاصيل الكائن والمكون.

3- أساس بطاقة القراءة:

تنمو القراءة مع الإنسان شأنها شأن أية مهارة أخرى فإذا أحببناها وأصلناها في نفوسنا وأدمنا عليها وتعاطيناها بانتظام فإننا نتمكن من ناصية البيان (التبليغ) باعتباره إفصاح عن الموقف النفسي الإنساني وتوصيل له إلى المتلقي لذابات من الضروري تفعيل دور البيئات والوسائط في تحبيب عملية القراءة إلى الطفل، فالقدوة الحسنة تنبع من منظر الوالدين وهما يقرآن وأن وجود مكتبة منزلية سيترك في نفس الطفل أثرا طيبا ويساعده على غرس عادة القراءة في نفسه، وإذا تعذر ذلك فليبادر والده بمرافقته إلى المكتبة بين الفينة والأخرى أو يشتري له كتبا تناسب سنه أو يقرأ له مواضيع معينة، لما لكل ذلك من أثر إيجابي على تربية في نفسه حب الكتاب وإقامة معه علاقة حميمة لا تنفصم عُرأها باتخاذها خير جليس في الأنام، وخلق في نفسه الاستعداد المستمر لفعل القراءة كمسلك معبد مفضي إلى تراكم الثروة اللغوية وتأكيد الذات بالتعبير عن خلجاتها إزاء العالم، وتشكل الأفكار والمهارات والخبرات ونموها نمو اضطرابيا مع النمو الفيزيائي لتلهمها رحلته مع عالم الحرف في المدرسة والتي يتعلم فيها مبادئ الكتابة والقراءة من خلال مادة تتماشى مع سنه وقدراته

العقلية وأن تكون موضوعات القراءة ممتعة لا تخلو من الإثارة والتشويق معالجة بلغة مكسوة بمسحة جمالية مؤثرة في قريحته ومصوغة بصياغة تراعي سنه وتخرج مرداتها عن حصيلته اللغوية.

وإذا كانت وظيفة الأستاذ ضمن المرتكزين الأولين متمثلة في تفكيك أوصال النص لغويا وجماليا وفكريا وإعادة إنتاجه وتركيبه ومحايلته بمعية طلابه الذين هم الأداة والقصد في الآن نفسه، فإن وظيفته الأكبر هنا تتمثل في البحث والاستكشاف والتجديد المتواصل وخلق الدوافع والمؤثرات والمحفزات في أنفسهم، فكانت أن سنت بطاقة القراءة كسعي ذؤوب لإقامة توازنات داخل السياق المثلث والاقتراب بالطالب من نمط القراءة الطوعية بغطائها الإشرافي وذلك باقتراح عليه مجموعة من العناوين المتنوعة ليقع اختياره على أحدها بغية قراءته وإنجاز بطاقة قراءة بشأنه تقدم في نهاية السداسي، أو يختار هو عنوانا معيناً فيقرأه بعد الموافقة عليه، وعلى ضوء ذلك ينجز بطاقة قراءة لهذا المؤلف انطلاقاً من عرض بعض محاوره ورصدها والوقوف على مضمونه والتقاط خيوط نسجه ورسم بعض معالمه ومدى تأثيره في نفسه بوصفه انعكاساً رؤيويًا لشبكة تواصله والتعليق على ذلك بشفافية التعبير المكثف لتفاصيل الدلالات في أبعادها المفتوحة على كل القراءات وهو العمل الذي يجازى عليه صاحبه بـ 25% من مجموع نقاط الامتحان في المقياس.

وإذ كان بعض الطلبة يبدون عبر كل ما ذكر استعداداً نفسياً وإرادة طيبة لتحسين أدائهم التعبيرية وإغناء ذخيرتهم اللغوية فإن الكثير منهم يخترعون مختلف الحيل والأسباب التي تطيل من فترة استرخائهم الذهني وكسلهم العقلي مثل التمارض أو الغياب المنظم في حصص النصوص قراءة ومشاركة، أو سلخ موضوع يتقارب مع الموضوع الذي كلف بتحريره، أو تكليف

شخص ما بتحريره في مكانه ويحضره على أساس أنه هو الذي حرره ولكن يكتشف أمره عندما يعجز عن قراءة بعض ألفاظه وعباراته أو شرح بعض ما يقصد في أقواله عندما يطالبه زملاؤه أثناء المناقشة بذلك، غير أن بعضهم ينتهي إلى قول الحقيقة بأنه ليس صاحب الموضوع. والأمر يكاد يتشابه بالنسبة لبطاقة القراءة عندما تسخ بمواصفاتها من باطن جريدة سيارة أو مجلة ثقافية أو كتاب مقرر أو يكلف شخص آخر بإنجازها أو يتم استنساخها عن بطاقة طالب آخر يجمعهما نفس المقروء، ولطالما ضببطت حالات كثيرة في هذا السياق واعترف أصحابها بلباقة متناهية بذلك، طالبين العفو والتكفير عن الذنب. لنجد أنفسنا بمعية هذه الحالات أمام قدرنا المشؤوم نرابط في دائرة تعذر حصول ملكة العربية واستعصاء التبليغ كتحصيل حاصل للعزوف عن القراءة والسمع والكتابة، الأمر الذي يجعلنا نتلمظ مرارة الخيبة ولكن ذلك لا يعفينا من التساؤل: هل حققت العملية البيداغوجية بعناصرها المتكاملة نجاعتها؟ ذلك ما ننفيه بكل صدق في ظل سريان مفعول ما يلي:

- 1- عدم توفر الاستعداد النفسي للقراءة كشرط ذاتي رغم توفر الشرط الموضوعي.
- 2- عجز النظام التربوي عن خلق آلية دقيقة للقراءة وضبطها بمثابة استراتيجية ينشأ في ظلها المتمدرس على مستوى مختلف مراحل الدراسة.
- 3- نشأة هؤلاء الطلبة وتربيتهم في محيط معاد للقراءة لا يدرك لذتها ولا يهضم منافعها ونزوعه نزعة مادية بحتة لا تعير اعتبارا للقيم الروحية والعقلانية في المجتمع.

4- انحدار الكثير من هؤلاء الطلبة من أصول، لغة منشئها ليست العربية، ولغة تداولها وتواصلها كذلك، فضلا عن عدم معاشتها للعربية عامية كانت أو فصحي عبر حياتها اليومية ومحيطها الأسري والمجتمعي وفرض على نفسها شكلا من أشكال "الغيتو" اللغوي تحت ذريعة المحافظة على هويتها وتحصين انتمائها ودرءا للذوبان في غير كيانها العرقي والدموي.

5- سيادة العامية كحذيقة لغوية في تعابير هؤلاء الأمر الذي صرفهم عن العناية بأداء تعبيرهم العربي الفصيح وتطويره في غياب ممارسة آلياته قراءة وكتابة، سمعا ومشافهة.

6- أن الأغلبية الساحقة من هؤلاء الطلبة مسكونون بمركب نقص فضيع إزاء العربية أصل في نفوسهم العزوف عن القراءة بالعربية على أساس الوهم الذي تحكم في أنفسهم بأن هذه الأخيرة لغة البداوة والشعر والجاهليين وذلك رمز للتخلف والانحطاط وليس للحضارة والتقدم والتكنولوجيا.

7- أن الكثير من الطلبة وخاصة الإناث منهم عندما يجدون أنفسهم مضطرين لقراءة مقروء بالعربية، فإنهم يأتونه بسرية وكأنهم يتعاطون شيئا محظورا أو منافيا للأخلاق.

8- أن البعض من هؤلاء الطلبة للأسف ينظرون إلى العربية بمثابة لغة غازية ولا يتورعون عن مناوئتها العداء.

9- تواطؤ بعض أصحاب القرار ومن تبوؤوا دفة التسيير مع هذه الحالات وضلوعهم فيها بتحويل الأستاذ إلى مجرد نقاط سخي تحت وطأة الترغيب أو الترهيب تغطية لعجزهم في شؤون التسيير، وذلك بإرضاء جميع

الطلبة حيث تصل نسبة النجاح إلى 99% وهي نسبة لا تعكس أبدا مصداقية المستوى السائد والذي يدعو إلى الرثاء.

10- عدم احترام شروط التسجيل في قسم الترجمة أدى إلى توافد حشود كبيرة من الطلبة انعكس على مستوى التكوين، للإشارة فإن 80% من المدرسين بقسم الترجمة لا يتجاوز مستواهم الدراسي شهادة الليسانس وان التدريس يتم في الغالب الأغلب بلغة هجينة، هي خليط بين الفصحى والعامية والفرنسية، وإذا كان ذلك يكشف عدم تحكم المدرس في لغة التبليغ فإن بعض المدرسين يجدون أنفسهم مضطرين لذلك بسبب الضعف الملحوظ على مستوى الحصيلة اللغوية لهؤلاء الطلبة التي تقف عائقا على التواصل مع خطاب الأستاذ.

11- الإغراق في التبجح بالفرنسية والتباهي بالتشدد بها واستعمالها.

Comme un moyen de prétention, de répression et non comme un moyen de communication et de compréhension.

وفي انتظار موعد صدور "قرار معجزة" يوقعه إنسان معجزة بدم فؤاده لا بحبر قلمه، يضع حدا لسريان مفعول هذا الواقع الحنظلي العصيب، حينها فقط نمي أنفسنا بمعانقة صبح جديد لعربية أخرى، بمحياها المشرق المعهود، وطلعتها الهية الصافية. وأما دون ذلك فمن العبث إجهاد النفس في قول أكثر مما قيل.

الهوامش:

1- *Savoir et liberté*, Gisèle Perez, ed Dauphine, Paris, 1992,P:26.

- 2- *Savoir lire*, Nicolas Dumas, éd Gallimard, Paris, 1986,P:66.
- 3- *Lecture et passion*, Pascale Montaigne, éd. Gallimard, Paris, 1971,P:93.
- 4- البيان والتبيين، تحقيق وشرح حسن السندوي، دار المعارف تونس، 1990، ص125.
- 5- المصدر نفسه، ص83.